



وفي الزنزانة التاسعة عشرة في مطار المزة العسكري فرع المخابرات الجوية كانت ملامح عبد الخالق حين عاد سليماً من التحقيق على غير عادته توحى أن دماً سورياً جديداً سيسفك تلك الليلة.

فنحن من جيلٍ كَبَرَ قبل أن يولد . وحين ولد وجد أباءه لازالوا يَحْبُّونَ بقربه.

ولأن الزنزانة كانت بالأصل زنزانة فردية كان نصفنا يقفُ بينما يجلس النصف الآخر لكي نستريح قليلاً.

وما ان التقت عيناي بعيني عبد الخالق حتى أصدق وجهه بالجدار كأنه يختبئ فيه . وآخر ما أردته في حياتي أن تكون نهاية عبد الخالق تحت الجادر !!

ولاح لي هول فقدان عبد الخالق ذاك الشابُ الحمصيُ النبيل . فرغم كل قطع اللحم التي أخذوها من جسده كان يتحداهم بما تبقى منه . لا ينهار تحت التعذيب ، تشعر بمجرد أن تقف أمامه أنكَ تعain رجلاً حقيقياً و سورياً أصيلاً و شجاعاً لا يخاف الموت .

حين اقتربت منه بما فيه الكفاية لأهمس له عبد الخالق مازا بك لم لا تتكلم مازا فعلوا بك مازا قالوا لك !

رد عليّ بفيسنِ من دموع كسرت أحداقه وسالت على وجهه ولحيتهِ الشقراء التي تُخبئ خلفها أشهرأ طويلةً قضتها هناك قبلي وعمرأ لم يتجاوز الثامنة والعشرين . واختنق بيكماءه وغضّ وهو يقول :

خي وائل قالولي (((عالجادر .)))

ونظر إليّ . فشعرت أنه اخترق قلبي كأنه يعتبني فمنذ وصولي وأنا أردد عليه أنتا سنخرج يوماً من هناك وأنتا ستنتظر من جديد وأننا لن نموت هناك أبداً وأن من هم في الخارج لم ينسونا أبداً !

لكني بعد أن عرفت أنهم سيضعونه تحت الجادر تجمدت بمحامي وتوقف الزمن الذي كنا نعد ثوانية ننتظر الخلاص موتاً سريعاً أو حريةً بعيدة ولم نَنَلْ سوى الوحدة والنسيان والموت الأحمر

هناك حيث كان يقع رجال سوريين بأوطانِ لكنهم دون أسماء لا يعرفهم أحد أبداً رحلوا بصمت مهيب .
صمت يشبه كبراء الشهيد حين يسقطُ مضطراجاً بإيمانه ويغمر جبينه التراب وهو بذات اللحظة يعانقُ السماء لأنَّه قدم روحه وهل بعد الروح شيء .

و كم هو الفرق بين أن تقرأ المأساة وبين أن تكون فيها . وأن تكتب الفاجعة وأن تمر منها .
(الجادر)) هو اسم يعرفه السوريون لقمash سميك يصنعون منه الخيام وأغطية السيارات الكبيرة فهو قوي لا ينفذ منه الماء ولا يتمزق بسهولة

و حين ابتعد المسوخ تلك الطريقة في القتل طبقوها علينا عشرات المرات .
حيث كان يؤتى بالمعتقل عارياً ومعصوب العينين يفكرون له يديه ورجليه من الأغلال يرمونه على الأرض ليستلقي في وسط الغرفة ثم يغطونه بالجادر ويربطون أطراف الجادر بزوايا الغرفة فتصبح أرض الغرفة كلها مغطاة بالجادر والمعتقل تحته .
ثم يبدأون بضربه بكل شيء من حديد . القصبان الحديد والمطارق والبواري وأنابيب التمديدات الصحية وبعضهم كان يأتي بأحجار والهدف من ذلك كان شيئاً :

الأول : أن الجادره يمنع رشقات الدم التي تنفر من أجساد المعتقلين التي تكون بالأصل مهترئة ومملوءة بالقيح تحت حريم ضرباتهم أن تصل إليهم .

والثاني : أنهم يتنافسون فيما بينهم ليروا من هو الأقوى بينهم بالضرب بحيث يجعل المعتقل يرسم أشكالاً غريبة تحت الجادر كأنه يمثل .

بينما صوته يتحول لعويل في ذاك القبر الأخير .
وكلما دفعَ الألم المعتقل أن يهرب باتجاه ما تجمعوا له بذات الإتجاه ليُمطروه بالضربات التي تكسر المُكسَر من عظامه أضعافاً مضاعفة

فيقع عليه بذات اللحظة قضيبٌ من حديد يكسر أضلاعه وحجرة كبيرة تُفتَّ ركبتيه ومطرقة يدقُ بها أحد المسوخ وجهه ليكسر بها أحد محاجر عينيه . والمعتقل يصرخ ويتقلب بينهم وهو يضحكون ويمرحون .

ومشان السيد الرئيس خود هي يا خاين !

ولماذا يحضر فيهم الرئيس ويغيّب الوطن . ولماذا يغيب فينا الشخص ويحضر الوطن .
ولماذا مدعنا نحو الحرية جسوراً صنعواها من لحومنا ودماءنا . بينما حفروا هم خنادق حول رئيسهم المعتوه كي يبعدوه إلى الأبد !

و ليجعلوا تحت الجادر من الأمتار القليلة التي هي مكان تحرك المعتقل بقعة من العذاب لا يمكن أن تصفها كل لغات أهل الأرض لو اتحدت معاً ولا يليق أمامها سوى الصمت فقط .

إن قيمة الأوطان ليست بما تملك . بل بما تنجب من أبنائها الذين يخطون اسمها على صفحات التاريخ بالتضحيات .. وإن قيمة الإنسان ليست بما يحوز بل بما يؤمن به إيمانه بقضيته التي يقدم لها روحه وهو بيتسّم . وأي قضية أطهر من وطني ل المؤمن بها .

ومن أكثر منا نحن السوريين فعل ذلك

بعد أقل من ساعة استدعونا للتحقيق وكنا ستة عشر مكبلين بسلسلة واحدة . ضغطت علي يد عبد الخالق فإسمه لم يأتي معنا وعرفتُ مصيره ورأيت ذاك بعينيه تركوه في زنزانتنا ليتّهموه وحيداً .

افترقت يداي من يديه بعد أن خرجت مع باقي المعتقلين لأتركه خلفي . لكنه لايزال أمامي حتى الموت .
الخامسة صباحاً حين عُدنا من قسم التحقيق كنت مملوءاً بأمل أن تكون معجزة حصلت وأجد عبد الخالق حياً

لكن الأمل بدأ يتبدد رويداً رويداً حين بدا لي الجادر وعليه جسده الغض الجميل .

عبد الخالق كان محمي الملامح تماماً وجهه كان قطعة مهروسة من اللحم الممزوج بقطع الدم قلعوا عيناه واحتلطا ماء بصره بالدموع التي ذرفها قبل الموت .

ويداه مكسورتان وأضلاعه بعضها ظاهر بعد أن كشطوا لحم صدره كله . ورُكَبْ رجله شقت لحمه وخرجت تنادي عليكم أيها السوريين أو على ما تبقى منكم .

ومرت أمامي كل الثنائي التي مضت مع عبد الخالق ذاك الجيل السوري الشامخ كان يقول لي وائل الزهراوي من عنا من حمص .. مانك من حلب !

وكلت أقول له أنت ملامحك أوربيه لست عربياً . فكان يغضب ويقول أنا عربي وسورى وحق هدول ويشير إلى حفر ذراعه التي يظهر منها عظامه من آثار التعذيب . ثم يبتسم طويلاً . ويتحقق في سقف زنزانتنا

وقدت من عظيم مصابي بعد عبد الخالق على ركتي حين رأيته . لكن قبل الدبابات على ظهرى أقامني من جديد .

وكم من عبد الخالق مضى لأجل الوطن ولم يكتب عنه أحد ولم يعرف عنه أحد . وكم من سوري مضى شامخاً إلى مصيره بصمت وهدوء دون كل هذه الضوضاء .

بقي عبد الخالق يوماً كاملاً هناك قبل أن يحملوا جسده الطاهر إلى المجهول .

والبعض لا يتحمل حتى أن يقرأ كلمات عن أولئك السوريين ولا يريد أن يصدق فداحة الحقيقة وعمق إجرامهم .

و قبل أن نستسلم علينا أن نفك . كيف استطعنا أن نصمد كل ذاك الوقت !!

لنعرف أننا صمدنا بدم عبد الخالق وسواء من السوريين الشرفاء . السوريين الذين قدموا كل شيء ولم يأخذوا أي شيء .

إن حياتي كلها وكل ما ذقته من عذاب لا تساوي غباراً كان يسكن حول جسد عبد الخالق الذي ذاق الموت الأحمر تحت الجادر فداء للحرية .

و يا من تقاسمون الوطن حتى قبل أن تحرروه هل فكرتم للمله إن كنتم حقاً تستحقونه !
إن أهم مافي الموت أنه يعطينا قيمة الحياة .

وإن حياة أولئك السوريين الذين لم تنجي النساء مثلهم كانت أساطير لم يعرف التاريخ مثلها .

وذلك لأن كل الرجال العظام ذاقوا في حياتهم ألمًا عظيمًا وحزناً عظيمًا لكن تلك كانت أقدارهم !

أما أولئك السوريين فقد كان اختيارهم وبمحض إرادتهم الخالصة تقدموا للداء واختاروا التضحية فكانوا أعظم من مر في تاريخ نضال الشعوب .

في القانون نقول المتهم بريء حتى تثبت إدانته ... لكنني في الثورة أقول اليوم غير ذاك .
فكلنا خونة إن تركنا قطرة دم واحدة من دمائهم تذهب هباءً .

وكلنا خونة إن نسينا قضيتنا واستسلمتنا للبكاء . و كلنا خونة إن سامحنا أو رضينا أو عفونا أو تنازلنا عن صرخة واحدة صرخناها . فسوانا دفع حياته كلها ثمناً لها .

ويا أيها العائدون لحضن النظام لا تخربوني ماذا فعل النظام بكم . أخبروني لم اختاركم أنتم بالذات لتعودوا إليه !!
عبد الخالق البارحة حلمت بك يا أخيه .

ووالله لازالت ابتسامتك ولحيتك الشقراء تطلان على حياتي كالوطن حين يجتاحني الحزن العتيق على أولئك السوريين الخالدين .

ووالله لو خان كل أهل الأرض دمك يا أخيه .

ثق أن هناك سوريين شرفاء . الإباء طبعهم والإخلاص شيمتهم سيبقى ضياء تضحياتكم في صدورهم بتوارثونه جيلاً فجيلاً .

ولن ننساكم يا أيها السوريين الأحرار ما دمنا أحياء . فإن متنا فلن ينساكم رب السماء .
فارقدوا بسلام آمنين يارفاق العذاب فالأوطان لا يغيبها الجبماء.

المصادر: